مفهوم النصر في القرآن الكريم

الشيخ حسين الاكرف

التاريخ: 2020/2/12م
عنوان المحاضرة: مفهوم النصر في القرآن الكريم
المحاضر: حسين الأكرف.
المكان: دار الحكمة -لندن

مفهوم النصر في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

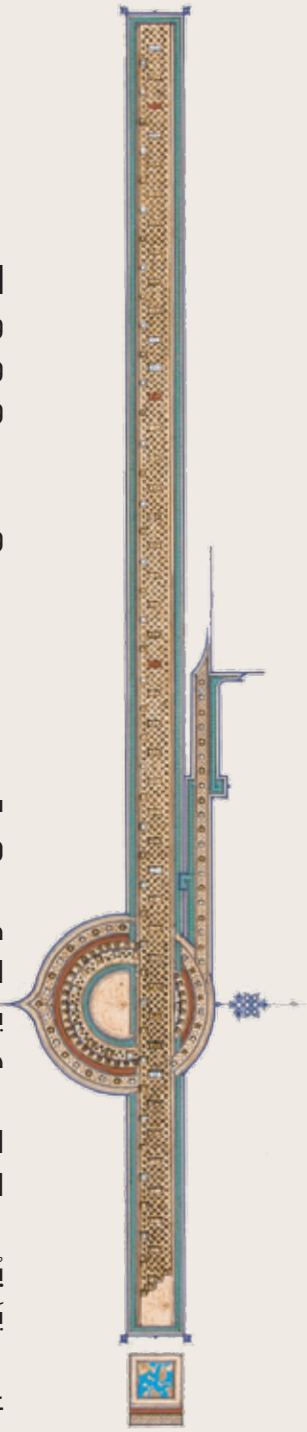

[نصَرَ]

لهذا الجذر دلالات حسية في اللغة من ذلك:
[السقي والغوث] نَصرَ المَطرُ أو الغَيْثُ الأرض: سقاها وغاثها.
والنّصر أيضاً: **[الرزق، أو العطاء]**.
وحكي أنَّ سائلاً وقف على قوم، فقال: **انصروني نصركم الله**، يريد: **إعطوني أعطاكم الله**.
والنصر: **[التأييد والعون]**.

ولا شك في وضوح العلاقة بين الدلالات المعنوية والمعنى الحسي للنصر، ولأن العربي واقف على أهمية الغيث في حياته الصحراوية الظامئة فهو يدرك عمق هذه العلاقة.

معنى النصر في القرآن الكريم

ليس هناك من الاستعمالات القرآنية لمصطلح النصر أكثر شياعاً من معنى الغلبة في ساحة القتال وأشباه ذلك من المعاني الحسية، كما في قوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تَشْكُرون**﴾.
وإن للإنسياقات الذهنية وشياع معنى دون آخر أثراً ودوراً في التكوين الثقافي، وبالتالي في تحديد الوظيفة والتكليف ورسم الأهداف، فإذا كانت الغلبة وإلحاق الهزيمة بمعناها الحسي القتالي هو أشد المعاني القرآنية حضوراً في ذهن المثقف المسلم فإن أي إنجاز يحققه في مسيرة الصراع مع الطاغوت لن يكون نصراً ما لم تكن الغلبة حسية، كما أن تأخر هكذا نصر هو بمثابة استمرار للهزيمة و بوابة لليأس.
إلا أن القرآن الكريم استعمل النصر في معنى يفوق في سعته معنى الغلبة في ساحة القتال، ليشمل ساحات متنوعة ومتعددة تتسق في معنى عام وهو: غلبة الحق وثبات المبدأ.
وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً**﴾ أن النصر هنا هو بمعنى تشريع حكم إلهيّ للمظلوم يَتدارك به ما وقع عليه من وصمةِ الظلم والبغي.
فالنصر بتشريع حكم لرفع ما وقع من ظلم القتل عن المقتول إنما هو غلبة لشريعة الله على شرعة الجاهلية وهي هنا القتل ظلماً وإسرافُ ولي الدم في القتل، كأنْ يَسفكَ بدمِ فردٍ واحد دماءَ عشيرة.
إذن فليس النصر القرآني محصوراً في معناه ضمن معنى الغلبة في ساحة القتال، بل إنهذا المعنى من النصر لا يعني بالضرورة غلبة الحق وثبات المبدأ، فمن جهة قد تكون الغلبة

في القتال مجرد مقدمة لغلبة الحق والمبدأ وطريقاً ليحقق المنتصر من خلاله هدفه، ومن جهة أخرى فإن عدم الغلبة في القتال قد يكون شرطاً من شروط غلبة الحق وثبات المبدأ.

ولتوضيح الجهة الثانية يمكن أن أقدم شاهدين:

الأول:مشهدية الشهادة في كربلاء.

لقد خرج الإمام الحسين عليه السلام مختاراً لمشيئة الله سبحانه والتي انعقدت على أن النصر الكربلائي المراد تحقيقه هو ليس الجانب العسكري منه وإنما هو تحقيق المشهدية الفدائية المقدسة حيث قال عليه السلام: (شاء الله أن يراني قتيلاً ويراهن سبايا)، وعليه فمن الخطأ القول أن ثورة الحسين عليه السلام منيت بالهزيمة بلحاظ الجانب العسكري منها، ذلك أن هذا المعنى من الغلبة لم يكن هدفاً ولا غاية من التحرك والقيام، وأن الوسيلة التي تكون بها غلبة الحق وثبات المبدأ هو أن يرى قتيلاً وترى نساؤه سبايا.

الثاني:ما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه سئل عن المنتصر في عاشوراء، فكان جوابه بأنّك إذا سمعت المؤذّن يقول: أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، تعرف من انتصر في كربلاء.

إن لِسعة مفهوم النصر في القرآن الكريم ثمرةً مهمة على مستوى العقيدة الحركية والبناء النفسي لدى المجاهدين، وهي أن حساب نتائج مجابهة الطاغوت هو حساب تراكمي يتشكل من مجموعة انتصارات على عدة أصعدة، بحيث لا يجوز أن يقاس الإخفاق والفشل والهزيمة على النصر من خلال صعيد واحد.

النصر القرآني فعل الله أم فعل الإنسان؟

لو تأملنا في مصطلح النصر في القرآن الكريم لوجدنا أنه يعني فعل شيء من أجل شيء، فالنصر فعل إمداد لغايةٍ هي الغلبة والظفر وليس فعلَ إنجاز، قال تعالى: ﴿**ونصرناهم فكانوا هم الغالبين**﴾، وفي الدعاء عنهم عليهم السلام **(لا إله الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده)** وهذا العطف عطف تفسير لمعنى إنجاز الوعد المنجز والذي إنما حصل بنصر العبد وهزيمة الأحزاب.

وهنا يأتي السؤال عن فاعل هذا الإمداد الذي يهدف إلى "غلبة الحق وثبات المبدأ" من هو؟

إن الآيات التي تؤكد على أن النصر بمعناه القرآني هو فعل الله تعالى وليس الإنسان مستفيضة وبيّنة، منها:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

﴿وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء﴾

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

وما يمكن أن يترشح عن كون فاعل النصر هو الله تبارك وتعالى هو أمور:

1- أن القيام لابد أن يكون لله.

2- أن المنهج والوسائل لابد أن تكون من صبغة الله.

3- أن كل إنجاز وغلبة ظاهرية حسية هي من غلبة الطاغوت لا الحق والمبدأ ما لم تتوفر على الأمرين السابقين. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾.

4- أن القيام إذا كان لله وعلى صبغته فهو موعود بالغلبة والظفر الحتمي، لأنه ممدود من الله تعالى، فالله يضمن النتيجة لكن علينا أن نتقن المقدمات، لذلك فإن كلمة الإمام الخميني العظيم في عدم النظر إلى النتائج "نحن مأمورون بأداء التكليف، ولسنا مأمورين بتحقيق النتائج" مبنية على هذا الأصل ولا تعني إهمال المقدمات و دراسة الحسابات

الظاهرية،وذلك لأن هذا هو التكليف، ولأن النصر القرآني تراكمي كما قلنا وكل نصر في أي مساحة هو جزء من مُركّب النصر الكامل، فقد يكون قيام الإمام رضوان الله عليه مقدمة لنصر آخر إن لم تُكتب له الغلبة.

وهذا على غرار أن التبيين للوحي المنزل تدريجي في عقيدتنا حيث يبين كل إمام منه حلقات ضمن سلسلة التكامل المعرفي في الإسلام، فإن الغلبة الشاملة والكاملة للحق والمبدأ لا تتحقق إلا بالظهور المقدس للصاحب أرواحنا له الفداء.

ملامح النصر الإلهي

منها:

1- هديُ القيادة

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ**﴾.

ولا يكفي مجرد التصدي في حصول هذا الهدي والتسديد للقائد، بل لابد من استعداد خاص ومؤهلات حددها الإسلام في القيادة، فإن تلقي الفيض والمدد هو بقدر المعرفة والتقوى.

2- تثبيت القاعدة المؤمنة

قال الله تعالى: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾.

والتثبيت يكون عبر العنصر الغيبي الإلهامي والذي يولد الثقة بالله والإيمان بحقانية القضية ويمنع من التراجع والإنهزامية.

3- إلقاء الرعب في قلوب الأعداء

قال الله تعالى: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾.

ومن الشرك بالله إسناد التأثير و التدبير إلى غيره كالدهر و المادة.

شروط استنزال النصر الإلهي

وضع القرآن قانوناً عاماً للحصول على نصر الله ومدده وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ وهي قضية شرطية تكوينية لا يمكن أن يتخلف المشروط فيها، وهو غلبة الحق، عن الشرط عند تحققه، وهو نصرة الله تعالى.

ولما كان الله غنياً عن عباده فإن نصرته هنا ليست فرع احتياجه وإنما هي بمعنى أن يكون النهوض والقيام لتحقيق التكليف الشرعي منطلقاً من الإيمان بالمبادئ الاعتقادية، بحيث يكون النظر دائماً إلى إنجاز التكليف المطلوب منا مهما كانت صعاب الطريق وطول المسافة.

وقد فصل القرآن الكريم في هذا القانون العام وذكر بعض الشروط الأساسية التي تستنزل نصر الله تعالى:

1- الإيمان بالغيب

قال تعالى:﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾.

والمعنى المناسب هنا من الإيمان بالغيب هو نفي الأغيار والآثار والإعتقاد بأن الحق تبارك وتعالى هو علة كل شيء والمالك المطلق ولا كفاية عنه بسواه ولا حاجة لسواه عند التوكل عليه.

إن هذا التوحيد في مقام الأفعال كان حقيقة اعتقاد الإمام الخميني العظيم، وهو أثر المدرسة العرفانية الحقة العالية التي شكلت منهج الإسلام المحمدي الأصيل، وهذا النوع من الاعتقاد الخاص هو السر في تحقق النصر والغلبة بقيادة هذا الرجل الإلهي الموحد والنخبة من تلامذته.

وإني وإن لم يوفقني الله للاطلاع الحسي على عرفان الإمام وأحواله التوحيدية فقد وفقت أن أتلمس الكثير من الحالات التوحيدية العالية لدى سماحة الشيخ الوالد آية الله الشيخ عيسى قاسم دام ظله الشريف.

2- البناء والإعداد

قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾

وإذا فهمنا أن النصر القرآني هو غلبة الحق وثبات المبدأ وليس غلبة القتال فقط، فإننا سندرك أن البناء والإعداد ليس نوعاً واحداً فهناك الإعداد المعنوي والتدريبي والتجهيزي "اللوجستي" وإن كان الأخيران ليسا علة تامة للنصر، فإن أهم بناء وإعداد في استنزال النصر هو البناء المعنوي العقائدي.

3- الصبر

بمعنى عدم الاستسلام والانهزام للظروف الآنية والواقع الفعلي بل تحمله ومقاومته، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

ونوع الصبر يتبع نوع التكليف دائماً، فحين أكون مأموراً بالقيام فإن الصبر هو تحمّل المواجهة، أما إذا كنت مأموراً بالقعود فإن الصبر تحمل الإنتظار والبحث عن الفرص.

4- وحدة الصف

يؤكد القرآن الكريم على وحدة الصف كعنصر أساس في استنزال النصر من الله تعالى، ويعتبر أن الأساس الذي تقوم عليه وحدة الصف أمران: طاعة الله وطاعة الولي.

قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾.

وهذا يعني ضرورة أمور:

1- السمو في الجانب العبادي والتقيد بضوابط الشريعة.

2- اتباع قيادة واحدة وفق الضوابط الإلهية الشرعية.

3- التسليم وحسن الإنقياد لها عند اختلاف الرأي وجعل رأيها حاكماً على الجماعة المؤمنة.

والحمدلله رب العالمين